الجزء الثالث

الفصل السابع

مرت برجاء أيام قسية لا تخبو حماها الاّ لتعاود الإشتعال.. وفشل عبـد الرحمن في أن يغري طبيبا ليجازف بنفسه في القـدوم.. ونقلـت الـى المنزل وهي في شبه غيبوبة.. أترها انفلونزا حـادة؟ وراحـت سـلمى تسعفها بما تقدر عليه، وقد هاض الخوف قلبها أن يتحـول الأمـر الـى التهاب رئوي لإهمال المعالجة..

انقطعت المياه، ونفذت المؤونة في البيت، وعبـد الـرحمن وأديـب متعطلان عن العمل.. وعادت مستعمرة بنات يعقوب تقذف قنابلها.. وفي هذه المرة لم يبرح أحد المنزل.. وراحت سلمى وسط هذه الأزمات تكتب وقد أسلمت الأمور لله.. ولكن الظروف كانت عركة لا تلين، وما تنجلي العتمة عن نصر حاسم للجيوش العربية التي دخلـت فلـسطين، فتعـود الأمور الى مجاريها.. ماكان الايمان بانتصار العرب يتطرق اليه الـشك من أحد، بالرغم من ليال دامسة ما تنضب..

وأخيرا صرم عبد الرحمن أمره على الذهاب الى القدس سيرا علـى الأقدام فلديه رصيد صغير في البنك العربي سيسحبه.. وصمم على أن لا يعود الاّ ومعه سيارة لنقل العائلة الى القدس القديمة، والنزول في سكنهم القديم..

وتهيأ الجميع.. وحرصت سلمى على أن لاتنسى دفاترها، فهي عندها أثمن من كل ثروة، وحلاها لتسعف في الضائقات، وثيابها الجديدة لتبـدو في هيئة محترمة، وصندوق الإسعاف للحوادث.. وكان الجميع منهمكين في أخذ ما يلزمهم.. أما والدة سلمى فكان لا يقر لهـا قـرار مـستوفزة الأعصاب، فعبد الرحمن بكرها وأعز أبنائها.. انه صديقها الذي تباثثـه همومها منذ عهد بعيد، وخدش يصيبه مأساة لها ما بعدها مأساة!.. ولجت

في شكواها مما ضايق أديب.. فحدته تكشف دوما عن غيرة للمنزلة التي يتسنّمها عبد الرحمن من نفس والدته.. منزلة لا يبلغها هو مهما جاهـد لاسترضائها:

- أنحن هنا في أمان؟.. رب قنبلة أصابتنا لا تترك منا ناجيا!..

وما كفّت عن شكواها حتى غسا الليل، وسمع في الخارج أزيز سيارة.. لقد عاد عبد الرحمن والنهار يولّي ليسهل الإختفـاء.. ومـا أن حـوتهم السيارة بأغراضهم القليلة، حتى أخذ السائق يقرأ آية الكرسي والـسيارة تنهب الأرض على الطريق الذي يشرف عليه مستشفى هداسا والجامعـة العبرية.. وأطلق رصاص مدفع رشاش، ولكـن لـم يـصب الـسيارة بأذى..ولما وصلت العائلة الى باب الساهرة كان على وشك أن يغلـق.. وحمل عبد الرحمن رجاء بين ذراعيه وعبر الباب الصغير الذي يتـرك مفتوحا حتى يبدأ وقت منع التجول منحني الرأس وتبعـه الجميـع الـى المنزل الذي اتخذه الوالد مشغلا له..

كان الباب مغلقا، والمنزل خال، فأولج خالد مسمارا وجده ملقى علـى الأرض في القفل وعالجه بلباقة ففتح..

وما أن دخلوا حتى هال سلمى الفوضى التي عليها المنـزل.. كانـت الليلة صاحية باهرة.. وما أن أضاء أديب اللكس حتى كانت قـد شـمر ساعد الجد لتنظيف المنزل ودعكه وغسله بالصابون تساعدها سعاد.. أما أديب وخالد فكانا يسعفانها بسحب المياه من بئر في ركن ساحة المنـزل الطليقة.. وانهمكت الأم بتنظيف المطبخ وإشعال المدفأة فيه.. ولم تمض ساعة من الزمن حتى نظف المنزل، فغدا كبلور مصقول.. وهيئت غرفة صغيرة لرجاء أدفئت بمنقل، وفرش سريرها بملاءات بيضاء.. أما عبـد الرحمن فانه خرج لإحضار الطبيب..

سبقت سلمى الجميع الى الإغتسال، أما أديـب وخالـد فانهمـا أخـذا يتشاجران يزحم أحدهما الآخر أمام باب الحمام الصغير..

وما لبث أن حضر الوالد.. وكفّا عن الشجار وهما يسمعان قلقلة مفتاحه بالقفل.. وأسرعت سلمى وشعرها لا يزال بليلا فضمها وقبلها، بعـد أن وضع سلّتين مثقلتين على الأرض.."الحمد لله على سلامتكم، أين والدتكم، ولم لا تأتي لاستقبالي؟ وقالت سلمى "انها في المطبخ لا تسمعك.. ولكـن انتظر حتى آتيك بخفّك.. لقد هلكنا في تنظيف المنزل.. والطبيـب قـادم لعيادة رجاء"..

ويذعن محتسبا في خلع حذائه الموحل، وهو يسأل عن صحة رجـاء، بينما يطرق الباب فتفتحه سلمى.. واذا بطفلة لا تتجاوز السابعة جميلـة التقاطيع تسأل:

- هنا عمي أبو عبد الرحمن؟
- نعم ماذا تريدين منه؟
- وابور الغاز.. أمي بحاجة اليه!..
- ما اسمك يا صغيرة؟
- سلوى..
- يا سلوى أخبري ماما أن الوابور مشغول بكل أسف..
- طيب!..
- سلمي على الماما يا سلوى..
- الله يسلمك..

ويقول الوالد:

- انهم جيران طيبون.. والآن هل تسمحين لنا يا آنسة خانم بالمرور؟

ولم يكد يتم عبارته حتى ارتج المنزل بقنبلة تـصم الآذان.. وانـشقّ الفضاء الساكن عن زعقات مروعة:

- في بيت الجيران! ضرب الوالد كفا بكف وهو يفتح البـاب والنـاس تتراكض على الطريق، وتقتحم المنزل المجاور..
- بابا! يجب أن أراهم، لعلي أستطيع إسعاف جرحاهم..
- أتدخلين بين الرجال؟

- أهذا وقته؟ يباح كل شيء في سبيل انقاذ حياة!..

وتوثّبت لا تلوي على شيء تحمل صندوق الأدوية.. وتبعها خالد بعد أن انتعل خفّه.. ووسع لها حين مرت بين الجمع الذي احتشد عند الباب.. ولكن وأسفاه من تسعف! أشلاء؟ كانت ليلة قمرية والعائلة في الباحة يتسامرون.. هناك رأت سلوى الصغيرة وقد هشمت جمجمتها ولفظت أنفاسها بين ذراعيها.. وهناك ارتمى والدها فاغرا فاه.. وقربه شاب لعله أخاها أصابته شظية في صدره، وهو يخور في غشية الموت.. وغيره مزق وأشلاء.. ولم تنج سوى الأم التي كانت في المطبخ، وراحت ترسل في الفضاء صيحات مجنونة!..

ايه أيها القمر.. ألا يحمر وجهك خجلا وأنت تشع على هذه الفظائع والمخازي؟ وأحست سلمى بالحقد المقدس يفجر صدرها.. وجذبها خالد من يدها.."لنعد يا سلمى!"..

* * *